مجلـــة بدايـــات
Email :bidayat@lagh-univ.dz Revue :Bidayate ISSN: 2676-198X
المجلد: الثاني(02) / العدد: الثاني(02) / نوفمبر 2020/ ص ص: 70-83

الهوية الثقافية.. الماهية والمقومات الأساسية في خطاب البشير الإبراهيمي

د.مليكة صياد
جامعة زيان عاشور (الجلفة)
البريد الإلكتروني :malikasiad2015@gmail.com
رقم الهاتف: 0665144682

تاريخ الإرسال: 31-8-2020	تاريخ القبول:12-09-2020	تاريخ النشر 08-11-2020

ملخص البحث

عند الحديث عن "البشير الإبراهيمي" فإنه لا مناص من الحديث عن الأمة الجزائرية، ومنه الهوية الثقافية لهاته الأخيرة؛ لأنه يعد من بين العلماء الجزائريين الراسخين الذين سخروا أقلامهم، وبذلوا جهودهم، ومنحوا كل وقتهم لبحث وتدوين كل ما يتعلق بالأمة الجزائرية، ولأنها؛ أي الهوية الثقافية من أهم الموضوعات التي أعمل فيها "البشير الإبراهيمي" الفكر، وأجال فيها النظر، وأطال فيها البحث، ودقق فيها التمحيص، وإن كانت لم تحضر في مدوناته حاملة هذا الاسم – الهوية الثقافية-، ولكن المسمى كان حاضرا، وموضوع الهوية بكل تشعباتها كان واردا؛ مما جعله باعثا على القراءة والمساءلة، ودافعا إلى التقصي والمدارسة، وطارحا لعديد الأسئلة على غرار :

- لماذا ركز "البشير الإبراهيمي" في خطابه على موضوع الهوية ؟
- ما هي المقومات الأساسية التي رأى "البشير الإبراهيمي" أن الهوية الثقافية تقوم وترتكز عليها ؟
- وهل بلغ الإبراهيمي الرسالة التي حملها فيما يخص موضوع الهوية ؟

وإننا وانطلاقا من محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة نريد الوصول إلى مربط الفرس؛ وهو كيف حضرت الهوية الثقافية كمعنى ومفهوم في خطاب "البشير الابراهيمي" دون أن تحمل بالضرورة هذا الاسم، وهل كان الإبراهيمي سباقا في الإشارة إلى هذا المعطى الثقافي لا سيما وأنه قد تمت الإشارة إلى أن المصطلح يعد:« حديثا بالفلسفة الأوربية، ظهر خلال الستينات في إطار التحرر من الاستعمار.»كما أن المجلس الأوربي Conseil de l'Europe قد أكد أن :« مصطلح الهوية الثقافية ظهر مع نهاية الستينيات وابتداءً من الثمانينيات أصبح كثير التداول.» ؟ بمعنى هل كانت لها ارهاصات في كتابات"البشير الإبراهيمي" ؟ .

الكلمات المفتاحية : هوية ثقافية، ماهية، مقومات أساسية، خطاب، بشير إبراهيمي .

Abstract:

When talking about "Bashir Brahimi", it is inevitable to talk about the Algerian nation, and from it the cultural identity of its latter, because he is one of the well-established Algerian scholars who have made their own pens, made their efforts, and given all their time to research and write down everything related to the Algerian nation, and because of it; Cultural identity is one of the most important topics in which I work "Bashir Brahimi" thought, and the consideration, and the length of research, and the scrutiny, although it did not appear in his blogs bearing this name -

cultural identity - but the name was present, and the subject of identity with all its ramifications were possible, which made it a source of reading and accountability, prompting inquiry and schooling, and answering many questions such as:
- Why did Al-Bashir Brahimi focus in his speech on the subject of identity?
- What are the basic elements on which Al-Bashir Brahimi believed that cultural identity is based on it?
- Did Brahimi reach the message he carried on the subject of identity
We want to reach out to the Persian suppall, which is how cultural identity was presented as meaning and concept in the speech of "Bashir Brahimi" without necessarily bearing this name, and was Brahimi a race to refer to this cultural given, especially since it has been pointed out that The term promises: « Modernity in European philosophy,It appeared during the 1960s as part of the liberation from colonialism." The European Council conseil de l'Europe has also confirmed that: "The term cultural identity emerged at the end of the 1960s and beginning in the 1980s became a lot of circulation." In other words, did she have any implications in the writings of "Bashir Brahimi"?

Kays words: Cultural identity.Quiddity. Basic elements. Speech . Bashir Brahimi

مقدمة

يحمل الحديث عن موضوع الهوية طبيعة خاصة؛ لأنه من بين الأحاديث التي لم تفقد بريقها، ولم يخفت لمعانها ولم تفتقر إلى عنصر التشويق فيها؛ وذلك ببساطة لأن الحديث عنها لم يتوقف، والبحث فيها لم يتحجر، فعلى الرغم من كون الفكرة مطروحة منذ القدم؛ إذ تواجدت في فكر كل من أفلاطون، وتلميذه أرسطو، ...وعلى الرغم من كونها – أي فكرة الهوية– قد مرت بمراحل تاريخية عديدة أسهمت في تطور مفهومها، إلا أنها مؤخرا قد تميزت باكتساحها لعدة علوم، فباتت تدرس ضمن كل التخصصات: الفلسفة، والتاريخ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والأدب، وغيرها .

لكن الجديد في الموضوع؛ هو هذا التواشج العميق والغائر بين موضوع الهوية، وباقي الموضوعات التي تمس الإنسان بصورة مباشرة؛ وهو ما تولد عنه سيل من المصطلحات والمفهومات على غرار : الهوية الفردية، والهوية الاجتماعية، والهوية التاريخية، والهوية الدينية، والهوية الثقافية ...إلخ من التمفصلات المختلفة للهوية .

من هنا؛ ونظرا لأهمية كل من الهوية، والثقافة بالنسبة للإنسان المعاصر أردنا أن نقف عند مفصل الهوية الثقافية .

1– ماهية الهوية:

تعزى كثرة الأحاديث الدائرة اليوم حول موضوع الهوية، وتزايد الاهتمام بها إلى حركة الاستعمار، وما جنته هذه الأخيرة على الإنسانية أفرادا وجماعات، وما كرسته ثقافة الغالب والمغلوب، والتابع والمتبوع، هذا بالإضافة إلى التطور الهائل لوسائل التكنولوجيا؛ وما تولد عنها من سرعة في الاتصال والتواصل بين مختلف الأمم؛ حيث أضحى العالم مجرد قرية صغيرة .

فتزايُد الاحتكاك بين الذات والآخر؛ جرّاء العوامل الآنفة الذكر، زاد من حدة البحث والتعمق في موضوع الهوية، وأدى إلى طرح إشكالية الهوية الفردية والهوية الغيرية، وبات الكل معني ببحث هذا الموضوع لأن كل فرد بات مضطرا لإثبات ذاته والتعريف بكيانه، ومحاولة الحفاظ على وجوده واستقلاله مقابل وجود الآخر.

ويلاحظ أنه رغم كل التغيرات التي طرأت على مفهوم الهوية؛ إلا أن جوهر المفهوم لم يتغير، إذ حافظ المصطلح على مركز الدائرة رغم تغير المحيط، فمن أجل الوقوف على أقدم المفاهيم التي وضعت لمعالجة مصطلح الهوية، تعود بنا الأدراج إلى تنظيرات الفلاسفة الأوائل ذلك أن:« مصطلح الهوية ليس وليد الساعة، بل يضرب بجذوره في عمق تاريخ التفكير الإنساني فقد ظهر مفهوم الهوية لأول مرة مع المنطق الأرسطي، وتم توظيفه منذ تلك اللحظة، في السياقات العلمية المنطقية والرياضية بصفة خاصة، وفي السياقات الفلسفية بصفة عامة.»[1] فأرسطو هو أول من وضع الخطوط العريضة للمفهوم، وإن كان قد صاغه وفق طريقة رياضية إلا أن مفهومه يعد النواة التي لم يستطع المصطلح أن يتخلص منها رغم كل التطورات التي اعترته:« وبذلك يكون المعلم الأول أول من افتتح مجال التفكير في مفهوم الهوية وفق منظوره المنطقي والرياضي، بحيث نجده يعبر عن قانون الهوية بتعابير متعددة كأن يقول: "أ هو أ، أ=أ، هو هو الشيء نفسه وقد تدل جميع هذه التعبيرات أن للشيء ذاتية خاصة يحتفظ بها دون تغيير، فالشيء دائما هو هو ومعنى ذلك أن الهوية تفترض ثبات الشيء.»[2] وإذا كانت هناك آراء تقول اليوم بحداثة المصطلح والمفهوم، فلا شك أن المقصود من وراء مثل هذه الصيحات هو تنامي الاهتمام بالموضوع وشيوعه لدرجة بات يبدو معها وكأن الفكرة جديدة، وليس المقصود منها الجدة والابتكار:« الهوية مصطلح معاصر، شاع بين المجتمعات بسبب ظاهرة العولمة وما صاحبها من احتكاك ثقافي، وما نتج عنه من ظواهر سلبية كالتثاقف والاستلاب الثقافي وغيرها من الظواهر التي أصبحت تهدد وجود ثقافات الشعوب المغلوبة على أمرها و على رأسها المجتمعات العربية؛ فكان لابد من إيجاد حل للتصدي لكل ما يمكنه المساس بثقافاتهم.»[3] كما أن تزايد وتيرة الاهتمام اليوم بالمصطلح والمفهوم ولّد إشكالا آخر؛ تجلى في تعدد المفهومات التي وضعت لهذا المصطلح، والذي انجرت عنه آليا إشكالية الغموض، إذ لم تعد هناك تخوم واضحة للمفهوم، ولم تعد مسألة البحث فيه هينة وبات:« مفهوم الهوية مفهوما غامضا ومعقدا ومتشعب المداخل تتفاعل داخله حقول معرفية عدة، وتتصارع ديناميات الـ"أنا" و"الآخر"، الـ"أنا" والـ"نحن"، الوحدة والتعدد، التطابق والاختلاف. وقد شكل مفهوم الهوية منذ سنين وحتى اليوم إشكالية مؤرقة غير قابلة للتجاوز في مختلف الفضاءات الثقافية والحضارية.»[4] ولكن مهما يكن فإن جل الباحثين والدارسين متفقين على أن مفهوم الهوية :« يطلق على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويعرّف بها، وينسحب ذلك على هوية الجماعة والمجتمع والثقافة.»[5] هذا بالإضافة إلى أن أي مفهوم وضع لهذه الأخيرة اشتمل بالضرورة على وجوب وجود شروط أهمها: التميز والتفرد والاختلاف عن الآخر؛ فمفهوم الهوية:« يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يتميز به الفرد أو المجتمع عن الأغيار، من خصائص ومميزات، ومن قيم ومقومات.»[6] أما إذا أردنا أن نقف على أكثر المفاهيم شمولية فستصبح الهوية هي:« مجموعة الخصائص والمميزات العقدية اللغوية والمفاهيمية والأخلاقية والثقافية والعرقية والتاريخية والجغرافية والسياسية، والعادات والتقاليد والسلوكات التي تطبع شخصية الفرد والجماعة والأمة بطبع معين ينفرد به عن باقي الأمم، حيث تشكل مرجعيته المعبرة عن ثقافته ودينه وحضارته.»[7] فهذا المفهوم شمل طبيعة الهوية وخصائصها ومقوماتها .

2-الهوية في فكر الإبراهيمي:

إن المتتبع لكل ما خلفه محمد البشير الإبراهيمي من آثار على مدى حياته التي دامت الستة والسبعين سنة يجد أن تيمة الهوية قد تربعت على عرش مؤلفاته، وسكنته كهاجس لم يفارقه إلا بعدما فارقت الروح الجسد؛ فقد حضر موضوع الهوية في كتاباته حضورا ممارساتيا وكأن به يطبق كل ما تداولته أقلام الفلاسفة نظريا؛ فها هو يتحدث عن هوية أمته؛ الأمة الجزائرية، وها هو يعرفها لنفسه أولا، وللشباب الجزائري ثانيا، وللآخر ممثلا في المستعمر الفرنسي ثالثا،، ولجميع القراء آخرا :« إن هذه الأمة الجزائرية أمة واحدة ولا كلام، ربها الله وإمامها القرآن ونبيها محمد ولغتها العربية ودينها الإسلام. وإنما تحمل ما تحمله الأمم من المقومات الكلية، وإن كانت لا تحمل ما تحمله الأمم من مؤهلات الحياة.»[8] لقد كان الإبراهيمي يجيب عن كل ما تطرحه الهوية من أسئلة على غرار من أنا؟ ومن نحن؟ وبم نعرف؟ وغيرها من الأسئلة التي تدور في فلك الهوية والتي تعمل الهوية دائما على تشغيلها وتحيينها.

لقد كان يجيب عمليا عن كل الأسئلة التي تطرحها الهوية نظريا، ويبحث عن الهوية في أرض الواقع، ويعمل على تكريسها قولا وفعلا، ليغرسها في نفوس الناشئة .

إنه الإيمان بالذات، وبالوجود، وبالاختلاف والتمايز عن الغير، وهي من أهم الخصائص الكامنة في جوهر الهوية، والتي لا تكون الهوية هوية دون توافرها.

3-الهوية الثقافية في متون الإبراهيمي:

الهوية هويات متعددة ومختلفة تبعا لاختلاف زاوية التصنيف؛ فهنالك الهوية الفردية والجماعية، وهناك الهوية الوطنية، والقومية، والغيرية، وهناك الهوية الاجتماعية والثقافية ...إلى غير ذلك من الهويات.

وتكتسي طابع التعدد هذا انطلاقا من أهميتها البالغة بالنسبة للفرد والجماعة، ولأنها تعقد وشائج قربى مع كل العناصر التي تسهم في تكوين الفرد وتؤثر على شخصه وشخصيته.

وإذا كانت الهوية بهذه الأهمية؛ فإن الهوية الثقافية كعنصر متفرع من الأصل-الهوية- يوازي بل قد يضاهي الهوية في الأهمية، وربما قد لا نجانب الصواب إذا ما قلنا أن الهوية الثقافية تعد أهم فرع من فروع الهوية وتشعباتها، لا سيما في عصر العولمة؛ وما ذلك إلا لأن الهوية الثقافية تمثل الحوصلة النهائية والبوتقة الجامعة التي تنصهر ضمنها كل العناصر المكونة للشخصية الفردية والشخصية الجماعية لأي أمة من الأمم .

إن الهوية الثقافية هي التي تشكل الحصن المنيع للمحافظة عن الأمة، وأي خطر يحدق بهذه الأخيرة هو خطر يهدد الأمة بحد ذاتها؛ كما أن كل ما يصيب الهوية الثقافية من شأنه أن يصيب جميع الهويات الأخرى:« وإذا كانت الهوية الثقافية كما يذهب إلى ذلك الإجماع، هي حجر الزاوية في تكوين الأمم القوية المتماسكة، فإن اللغة هي جوهر هذه الثقافة وأداتها وبدونها لا تكون ثقافة ولا هوية.»[9] وإذا كان مفهوم الهوية الثقافية يعد معاصرا كونه ظهر في الستينات من القرن الماضي:« لم تبرز ظاهرة الهوية الثقافية باعتبارها إشكالية سوسيو-سياسية،كانشغال اجتماعي أو سياسي، إلاّ عندما بدأت التيارات الاجتماعية تنشغل وتهتم بثقافات الشعوب التي كانت مهمشة

ولم تحض هذه الثقافات بنصيب من انشغال المحافل العلمية الكبرى، فبدأت الاهتمامات تظهر بعدما تحررت دول من العالم الثالث(خلال الستينيات) وبدأت تظهر مشكلات الاحتكاك بين الثقافات interculturel فظهرت أعمال تناولت ظاهرة "اصطدام الثقافات" le choc de cultures.»[10] فإن الإبراهيمي قد سبق الغربيين إلى ذلك بكثير؛ ففي خطبه ومقالاته المحبرة في الثلاثينات قد ألح وركز على ضرورة الحفاظ على الهوية الثقافية والتي ذكرها كمفهوم ومسمى دون ذكرها بهذا المصطلح- الهوية الثقافية- ففي مقالته المعنونة بـ"من الحقائق العريانة" والتي نشرها في جريدة البصائر العدد 1 الصادر يوم 25 جويلية 1947م يقول:« في هذا الوطن الجزائري شعب عربي مسلم، ذو ميراث روحاني عريق، وهو الإسلام وآدابه وأخلاقه، وذو ميراث مادي شاده أسلافه لحفظ ذلك التراث، وهو المساجد بهياكلها وأوقافها، وذو نظام قضائي مصلحي، لحفظ تكوينه العائلي والاجتماعي، وذو منظومة من الفضائل العربية الشرقية منتقلة بالإرث الطبيعي من الأصول السامية إلى الفروع النامية، لحفظ خصائصه الجنسية من التحلل والإدغام، وذو لسان وسع وحي الله، وخلد حكمة الفطرة، وجرى بالشعر والفن، وحوى سر البيان، وجلا مكنونات الفكر، ثم خدم العلم، وسجل التاريخ، وشاد الحضارة، ووضح معالم التشريع، وحدا بركب الإنسانية حينا فأطرب.»[11] لقد تحدث الإبراهيمي عن الهوية الثقافية، عن ماهيتها، وعن أهم مكوناتها، من خلال التعريف بالهوية الثقافية للأمة الجزائرية؛ فهو في هذه المقالة يتكلم عن المساحة الجغرافية المتمثلة في الوطن، ويتحدث عن اللغة الأصلية للأمة الجزائرية، وعن انتمائها الديني، وعن ميراثها الروحاني، والمادي، وعن إرثها من مختلف الفنون والآداب، وعن علمها وتاريخها، وهي العناصر الأساسية التي لا يمكن أن توجد هوية ثقافية بدونها، بل أحيانا يتم تعريف الهوية الثقافية من خلال التعريف بمقوماتها:« مجموعة من الخصائص والقيم الجوهرية لكيان بشري سواء أكان فردا أم جماعة، وتتجلى تلك الخصائص في المكونات الثقافية التي تميز الأفراد والجماعات عن غيرهم.»[12] لقد عرَف الإبراهيمي معنى الهوية الثقافية قبل الخمسينات وما مقالاته وخطبه المتحدثة عنها إلا دليل على ذلك، كما تنبه إلى مختلف الإشكاليات التي تطرحها هذه الأخيرة في دول مستعمَرة يهدف الاستعمار إلى طمس هويتها من أجل فنائها.

لقد اكتشف إذن قبل غيره حقيقة المعادلة القائلة بأن الهوية الثقافية > الهويةك الأمة، ولذلك لطالما دعا إلى ضرورة المحافظة على الشخصية الوطنية (الهوية)، وكذا الشخصية الثقافية (الهوية الثقافية)، والتمسك بكل مقوماتها، والنضال من أجل صيانتها وحمايتها؛ لأن اندثارها يعني اندثار الأمة .

أما بالنسبة للمسميات التي كان الإبراهيمي يطلقها على ما تعنيه الهوية فنجد مصلحات من قبيل: الشخصية الوطنية، الذات الجزائرية، لكن أكثر كلمة تكررت في مؤلفات الإبراهيمي مشيرة إلى هذا المعنى هي الأمة الجزائرية .

لقد اكتشف الإبراهيمي الخطر الذي يشكله الاستعمار على هوية أي أمة مستعمَرة في بداية العشرينات والثلاثينات؛ أي أنه تفطن لكل ما تطرحه الهوية الثقافية من إشكالات في الدولة الرازحة تحت نير الاستعمار قبل ما تشيع في العالم الغربي في الستينات بعد حركات التحرر المعروفة، ذلك أن الاستعمال الشائع والمتداول لم يكن إلا مع بداية السبعينات ومن أهم المحطات العالمية التي استعمل فيها المصطلح:«-ملتقى ماي1976م المنعقد بـ:براتسBrest الفرنسية، تحت عنوان "الهوية الثقافية الأوربية"، الذي تبنى فكرة أن أوربا ترتكز على أصولها و الوعي بهويتها الثقافية الأوربية. ثم في سنة 1978م وردت فكرة الحفاظ على الهوية الثقافية الماضية و الحاضرة للمنطقة، وابتداء من سنة 1984م أصبح مصطلح الهوية الثقافية مستعمل بكثرة وخاصة عند المثقفين أمثال موران (Edgar Morin).. .»[13] ولذلك أخذ على عاتقه مَهمة ترسيخ وتكريس مبدأ الحفاظ على الهوية، وكذا الهوية الثقافية؛ وما المدارس، والجرائد والمجلات، والنوادي

الثقافية، والكتاتيب والمساجد، التي عكف الإبراهيمي على فتحها، والسهر على إحياء التراث العربي بشعره ونثره، ومختلف فنونه، وإرساء معالم اللغة العربية من خلالها؛ إلا دليلا قاطعا على ذلك .

فقبل أن تطرح فكرة صدام الثقافات في المحافل الأوروبية بعد حركات التحرر المعروفة في العالم، تفطن لها الإبراهيمي وشعبه يئن تحت وطأة الاستعمار، لقد كان يعي جيدا ما تعنيه الثقافة الأصيلة لأي شعب ينعم بالحرية والاستقلال، وما تعنيه لشعب يعاني ويلات المستبد الغاشم .

لقد مثلها صمام الأمان الذي يقيها الميوعة والاندثار، ويجنبها المحو والزوال، والهوية الثقافية أهميتها من أهمية الثقافة، وإذا كان لا يمكن لشعب أن يستغني على ثقافته، فالحفاظ على الهوية الثقافية الرهان الذي لا تقبل خسارته.

ولهذه الأسباب لم يمل الإبراهيمي من القول والتكرار أن الهوية الثقافية الجزائرية هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن للشعب الجزائري أن يفرط فيه؛ وإذا كانت الثقافة :« في معناها الأوسع تعتبر كجُملة الصفات المميزة سواء كانت روحية ومادية فكرية وعاطفية، التي تميز مجتمع أو كتلة اجتماعية، زيادة على الفن والآداب، فهي تشمُل صفات العيش، والحقوق الأساسية للبشر، و أنظمة القيم والعادات والمعتقدات. وأن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته والتي تجعل منا كائنات تتميز بالإنسانية.»[14] فإن الهوية الثقافية هي التي تمنح كل أمة بصمتها الخاصة، وإمضاءها المميز، ولذلك لم يمل الإبراهيمي من التأكيد على ضرورة التمسك بكل عنصر من عناصر ثقافتنا، وبكل مقوم من مقومات هويتنا الثقافية، حتى لا تطغى علينا هوية الوافد –المستعمر الفرنسي–، وحتى لا تتعرض هويتنا للتشويه، الذي قد ينجر عنه زوال أمتنا .

4–المقومات الأساسية للهوية الثقافية عند الإبراهيمي:

4–1–الدين:

لقد ذهب الإبراهيمي في حديثه عن هوية الأمة الجزائرية كل مذهب، وتفنن في تقديمها وتعريفها، والتعريف بها أيما فن، ففي الوقت الذي كان الكتاب والباحثون يشقون غبار التنظير، والبحث والتدقيق في أهم مقومات الهوية والتي لا تكون الهوية هوية بدونها، كان الإبراهيمي يمارس ذلك تطبيقا وواقعا، بعيدا عن كل تجريد، فحينما راحت الدراسات تبحث في مفهوم الهوية، وأنها لابد أن:« تستند إلى مقومات أساسية كاللغة والدين والتاريخ والعادات والتقاليد والقيم وطرائق التفكير والسلوك وغيرها مما يحفظ للأمة شخصيتها المتجذرة عبر عصور التاريخ وتميزها عن غيرها من الأمم.»[15] كان الإبراهيمي في الثلاثينات والأربعينات يحاضر من أجل الحفاظ على مقومات الهوية الجزائرية دون أن يذكر لفظة الهوية، ولكن المعنى كان حاضرا وقويا وجليا:« لا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، ولغة، ودين، وتقاليد صحيحة، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمتها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها؛ فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط، ثم يفيض عليها من مجموع تلك الحالات إلهام لا يغالب ولا يرد بأن تلك المقومات متى اجتمعت تلاقحت، ومتى تلاقحت ولّدت وطنا.»[16] بل أكثر من ذلك لقد اهتم الإبراهيمي بكل مقوم من مقومات الهوية على حدة، وأعطى كل واحد منها شيئا غير يسير من وقته، وبذلا غير قليل من جهده، ومساحة غير هزيلة من فكره،

فسوّد الكثير من البياض، وعمّر الكثير من الفراغ في عقول الشباب، وسحّ الكثير من المداد، كل ذلك من أجل ترسيخ فكرة الهوية ودفع الأجيال الناشئة للتشبث بها لأنها أساس بقاء وخلود الأمة.

وإذا كان الإبراهيمي يصر ويلح في أكثر من مرة على ضرورة الحفاظ على مقومات الهوية ككل مجتمعة، فهو لم ينس أن يذكر ويؤكد على دور وأهمية كل مقوم على انفراد؛ فحظي الدين كمقوم أول وركن رئيس من أركان الهوية باهتمام بالغ من لدن الإبراهيمي:« الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين.»[17] فنافح من أجله معلنا أهميته، مركزا على قيمته الجوهرية وفاعليته الكبيرة في الحفاظ على تماسك الأمة ونسيج هويتها:« إن التاريخ شهد هذا الدين في عنفوان شبابه وتهيؤ أسبابه وازدخار عبابه، فشهد له بالفضل الأتم، والخير الأعم للبشر كلهم...وإن التاريخ لم يعرف دينا من الأديان لم يبق على أساس الجنسية ولم يرجع على قواعدها إلا دين الإسلام فهو لا يختص بجنس، وهو صالح لكل جنس وهو موافق لكل فطرة وملائم لكل نفس.»[18] فالدين هو أكبر دعامة تمكن الأمة من الحفاظ على وحدتها، وتصونها من كل ما قد يحيد بها عن جادة الصواب، ويحميها من كل خطر يروم لها التفرق والتشرذم:« فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق، ويأبى لها دينها–وهو دين التوحيد– إلا أن تكون موحدة.»[19] إن الملاحظ لما خلفه الإبراهيمي من آثار يرى الأهمية الكبيرة التي يوليها للدين؛ فهو يحتل المرتبة الأولى في حديثه عند كل مرة يتطرق فيها إلى بحث هوية الأمة الجزائرية ومقوماتها.

لم يخطئ الإبراهيمي في تصوره، بل كان سباقا لمعرفة قيمة وجوهر الدين بالنسبة للهوية، ولذلك قدّسه ودافع عليه، ودعا للتمسك به، فكم دافع عن المساجد، وأصر على قيامها بالدور المنوط بها، وكم شجع الناشئة على تعلم الدين والتفقه فيه، وعلى حفظ القرآن الكريم، ففي أكثر من مقالة موجهة للشباب كانت رسالة الإبراهيمي فيما يخص الدين واضحة، كما أنه طالب الأولياء بضرورة الاعتناء بأبنائهم وحسن توجيههم لهم من خلال مطالبتهم بالتمسك بالدين الإسلامي لأنه العروة الوثقى، وظل يؤكد على أهميته إلى أن وافته المنية .

4–2–اللغة:

احتلت اللغة مكانة هامة بالنسبة للهوية الثقافية، ومرجع ذلك إلى نمط العلاقة الذي يربطها بهذه الأخيرة؛ فهي شرط وجود للثقافة؛ إذ لا ثقافة بدون لغة:« اللغة وعاء لحفظ الثقافة ووسيلة التعبير عنها، والعربة التي تنقلها عبر الأجيال، وكما لا يمكن وجود ثقافة بدون لغة، لا توجد لغة بدون ثقافة، ولا يوجد الاثنان بدون مجتمع بشري.»[20] كما أن الثقافة هي شرط وجود بالنسبة للهوية الثقافية:« الثقافة هي خلاصة تفاعل الإنسان مع بيئته وهي عبارة عن ذلك النسيج المتداخل والمتشابك من المعارف والعادات والتقاليد والطقوس والنظم الاجتماعية والدينية والقيم الروحية والأدبية والفنية. التي يكتسبها الإنسان بحكم انتمائه للمجتمع، والتي تشكل شخصية الفرد وهوية الجماعة. بما أن الثقافة هي ثمرة حوار طويل وممتد عبر القرون، وبما أنها تمثل إرثا قديما وواقعا متجددا فهي ترتبط بالماضي والحاضر والمستقبل.»[21] واللغة تكتسي أهميتها البالغة من كونها تمثل الحامل للثقافة والمحافظ عليها وناقلها عبر الأجيال؛ فلا ريب إذن أن تحظى بما حظيت به من اهتمام لدى الإبراهيمي المفكر والمثقف الواعي، الذي كتب كثيرا عن اللغة ودورها وأهميتها ووظائفها، بل سعى ميدانيا إلى فتح الكتاتيب والمدارس، ودفع بتعليم اللغة العربية أشواطا إلى الأمام، وكان يحرص على تعليمها شخصيا، وكل سنة يقيّم إنجازات مختلف المدارس التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ولطالما كانت اللغة محورا رئيسا في محاضراته التي كان يلقيها سواء داخل الوطن أو

خارجه:« لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية- زيادة على ذلك القدر المشترك-أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها.»[22] لقد كان من أحرص الناس على تعلّم اللغة العربية، ومهتما بالكلام بها وبالكتابة بها، وحاول مرار وتكرارا أن ينقل هذا الحرص الشديد للناشئة، ولم يتوان على أن يغرس فيهم حب اللغة العربية، وحب حمايتها والحفاظ عليها، إيمان منه بأن:« اللغة من أهم العناصر التي تشكل هوية أي جماعة وأي وطن، وهي التي تطبع هذه الهوية بطابعها الثقافي المميز واللغة العربية هي اللغة المشتركة التي يتحدث بها جميع أبناء الأمة العربية، وهي لغة التراث المشترك ولغة العلم والثقافة، وبالتالي لغة التحديث والحداثة، إنها الرابطة المتينة التي توحد بين مستويات الهوية في الوطن العربي.»[23] فاللغة تمتد في نسيج الأمة؛ لأنها لغة الدين، ولغة الفكر، ولغة التراث، ولغة الأدب، إنها الحافظ لكل منجزات الأمة .

ولما أحس بالخطر الذي يضمره العدو للغة العربية حاول أن يدخل معه في مفاوضات من أجل افتكاك حق التعليم باللغة الأم – العربية-، ولما كانت المحاولات مع المستعمر لا تجدي نفعا، كان ينقل القضية إلى المحافل العربية على غرار جمهورية مصر العربية وكذا المغرب وتونس وغيرها:« والأمة تريد تعليما عربيا عليه طابعها، وفيه أثر يديها، وله ما لها من روح، وعليه ما عليها من سمات.»[24] فقضية التعليم العربي جاءت كرد فعل على السياسة الاستعمارية التي حاولت فرض التعليم باللغة الفرنسية وجعلها اللغة الأولى في الجزائر، بالإضافة إلى وضع عراقيل جمة من شأنها أن تحول بين الجزائريين وبين تعلم لغتهم، والغاية من كل ذلك خلق جيل فرنسي اللسان، فرنسي الإنتماء، وقطع كل أواصر الصلة بين الشعب الجزائري وأصوله وجذوره .

لقد تنبأ الإبراهيمي بأن محاولات فرنسا كلها ستبوء بالفشل، وهو ما حدث فعلا على أرض الواقع؛ حيث كان انتشار مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تزايد مستمر، واستطاع التعليم بالعربية أن يفتك له مكانا رغم أنف المستعمر وعراقيله:« إن هذه الأمة تعتقد-وتموت على اعتقادها-أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني، وشرط في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد.»[25] وناضل من أجل هذا الحق المستلب بكل ما أوتي من قوة مال وسداد فكر، ولم يمن بالوقت الذي كان يقضيه في سبيل أن تأخذ اللغة العربية حقها في الظهور والكلام ولم لا الأوراق الرسمية، والنشاطات الإدارية في البلدية .

كل ما قام به الإبراهيمي من أجل أن تأخذ اللغة الأم مكانتها التي تستحقها في الجزائر المستعمرة، يؤكد وعيه بقيمتها وأهميتها، ودورها الفعال في الحفاظ على هوية الأمة الجزائرية، فمحاضراته عنها إذن لم تكن وليدة الفراغ ولكنها استشعار الواقع واستشراف المستقبل:« لكون اللغة العربية عنده تتلاحم مع الإسلام والعروبة تلاحما مكينا، وهي تمثل له مبدأ جوهريا ومكونا رئيسيا من مكونات هويته الأصيلة وهوية أمته.»[26] واللغة في الحقيقة تحظى بالاهتمام لدى كل الأمم نظرا لجملة الوظائف التي تؤديها، ولما تمثله ذلك أن:« اللغة =هوية ناطقة.»[27] لكنها حظيت باهتمام أكبر من لدن المفكرين الجزائريين وعلى رأسهم الإبراهيمي، ويعود ذلك لسببين وجيهين: أولهما أن الجزائر كانت مستعمرة وبقيت كذلك قرنا واثنان وثلاثين سنة، وثانيهما السياسة التي اعتمدها المستعمر الفرنسي لطمس معالم الهوية الجزائرية والحرب الضروس التي شنها لتدمير اللغة العربية:« لما كانت اللغة ظاهرة اجتماعية فإنها ولاشك من العناصر الأساسية المسهمة في الحفاظ على وحدة وتماسك المجتمع، حيث تكتسب أهمية بالغة بالنظر إلى طبيعة الوظائف التي تؤديها في سياقها الاجتماعي والتاريخي والسياسي والثقافي واللغوي، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت رمزا للهوية الوطنية ووسيلة للإبداع الفكري، ومطلبا اجتماعيا ونخبويا

يهدف إلى تأكيد السيادة الوطنية والوحدة اللغوية. ولهذا كانت بالنسبة لنا نحن الجزائريين عنصرا أساسيا في هويتنا الوطنية وطريقة تفكيرنا.»[28] وهي صمام الأمان الذي يحفظ للأمة بقاءها واستمرارها، وكذا تميزها واستقلالها، سواء أثناء الاستعمار، أو أثناء الاستقلال؛ لأن الأمة، أي أمة لا تستطيع أن تعيش منعزلة عن باقي الأمم، والتفاعل بينها-أي بين الأمم- أمر تفرضه طبيعة الفرد الإنساني المكوّن الأساسي لأي أمة.

4-3-الوحدة القومية :

معروف أن الهوية الثقافية من بين ما ترتكز عليه الوحدة القومية؛ التي من شأنها أن تحافظ على الثقافة المشتركة لمجموعة من الشعوب؛ فعلى قدر أهمية الموروث الثقافي بالنسبة للهوية الثقافية على قدر أهمية الوحدة القومية التي من أساسياتها المحافظة على هذا الموروث المشترك.

ونظرا لأهمية الاتحاد من أجل المحافظة على الوحدة القومية ركز الإبراهيمي على هذه النقطة، ودعا إلى ضرورة الالتزام بها لا سيما وأن الاختلاف والتشتت والتشرذم يؤدي إلى الضعف؛ وضعف الأمة يؤدي إلى ضعف كيانها المادي والمعنوي؛ وبالتالي يتداعى الموروث الثقافي وينهار، وعدم توحيد الجهود من أجل الحفاظ على هذا الموروث واستثماره وتطويره بما يتواءم والحاضر سيؤدي به لا محالة إلى الزوال، ويطاله النسيان، وماضي الأمة وموروثها الثقافي من أهم القواعد التي يبنى عليها الحاضر ويشكل ترسانة يتم الاتكاء عليها للانطلاق نحو مستقبل زاهر، من هنا لم يتوان الإبراهيمي في النداء والدعوة وحشد الجهود على كل المستويات من أجل الحفاظ على الوحدة القومية التي تحفظ لنا موروثنا الثقافي المشترك .

هذه الوحدة القومية التي لطالما شغلت بال الإبراهيمي:« لتعلم أنه مادام الإسلام عقيدة وشعائر، وقرآنا، وحديثا، وقبلة واحدة، فالمسلمون كلهم أمة واحدة، ومادامت اللغة العربية لسانا وبيانا وترجمانا فالعرب كلهم أمة واحدة؛ كل ذلك كما أراد القدر المقدور، والطبيعة المطبوعة، والأعراق المتواصلة، والأرحام المتشابكة.»[29] الوحدة بين الشعوب ذوات المقومات الأساسية المشتركة، والتي تعدّت في نظر الإبراهيمي المغرب العربي المعروف بـ(تونس- الجزائر-المغرب) إلى كل الشمال الإفريقي، بل إلى كل منطقة جغرافية تقاسمنا ذات المقومات:« كل هذه العوامل صيرت هذا الشمال عربيا قار العروبة على الأسس الثابتة من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية، وآداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي، وجاء التاريخ-وهو الحكم في مثل هذا- فشهد وأدى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب، وجاء الزمن بثلاثة عشر قرنا، تشهد سنوها وأيامها بأنها فرغت من عملها، وتم التمام، ووقع الختم، وأن عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طبيعية منسابة لم يشبها إكراه، ولم يشنها عنف، ولم يؤثر فيها عامل دخيل، ولم تقم على تحيل واستغفال.»[30] فكان يدعو إلى الوحدة بين كل الأمم الناطقة باللسان العربي، والمتدينة بالدين الإسلامي، حيث كان هذان العنصران يمثلان أسمى الروابط وأمتنها وأقدرها على توحيد الصفوف، وكما اهتم الإبراهيمي بكل عنصر من هذين العنصرين على حدة، اهتم بهما سويا، حيث يرى في اجتماعهما دعامة قوية للحفاظ على الهوية الثقافية لأي أمة:« فأما اللسان العربي فهو لسان هذا الدين الذي به كتابه، وهو —يعد-ترجمانه الحاذق الذي نقل الإسلام وما فيه من عقائد سامية، وحكم غالية، وأخلاق عالية، وأسرار جليلة، وآداب قيمة إلى أمم أجنبية عن لغة هذا الدين، وأخذهم بها أخذة السحر بكيفية تريهم أن الدين هو اللغة وأن اللغة هي الدين، فبينما هما دين ولغة

إذا هما شيء واحد، وإذا تلك النفوس التي كانت بعيدة عن مزاج هذا الدين وعن مزاج لغته تعتقد أن معنى العربية جزء من معنى الإسلام، وإذا بهذا الدين وبهذه اللغة يقربان البعيد من تلك الأهواء ويؤلفان بين المتنافر من تلك الميول. ثم تصحو الأفئدة، وينكشف الغطاء عن حقيقة واحدة وهي أن تلك الجنسيات تلاشت في هذه الجامعة الروحانية التي لا تعرف جنسا وجنسا، وإنما تعرف الإنسان لأنه إنسان يترقى بمواهبه ويكرم بتقواه.»[31] لقد انتبه الإبراهيمي مبكرا لأهمية هذه المقومات في الحفاظ على الوحدة القومية، إذ لا شيء يمكنه أن يفرق الأمم التي تجمع بينها هذه القواسم المشتركة:« عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد؛ وهي أثبت أساسا، وأقدم عهدا، وأصفى عنصرا.»[32] وبقاء هذه الأمم واستمراريتها، وتوحدها وتكاتفها يمكنها من الحفاظ على هويتها الثقافية المشتركة، فهذه الأخيرة تؤثر وتتأثر بكل ما يمس الأمة من قريب أو من بعيد، والوحدة دائما تزيد في القوة التي تضمن فرض الذات وإثبات الوجود.

4-4-الموروث الثقافي المشترك:

عندما نتحدث عن الهوية الثقافية، لا مناص من الحديث عن الإرث الفكري أيا كان مجاله، أدبا أو اقتصادا أو اجتماعا أو هندسة أو غير ذلك، فخلاصة فكر الأمة تعد من ركائز الهوية الثقافية، وعلى حسب تقدم فكر الأفراد يكون تقدم الأمة، ونظرا لأهمية الفكر بالنسبة للإنسان ظلت الأفكار التي تنتجها قرائح الأفراد محط استقطاب النظر، ومحل رعاية خاصة، ولذلك يحظى الإرث الفكري بعناية كبيرة من قبل رواد الأمة والناهضين بحضارتها، والعاملين على تقدمها.

ولذلك نجدهم يهتمون بالمنتج الفكري، ويعملون على تطويره، ويحرصون على نقله للأجيال الناشئة ويطالبونها بالحفاظ عليه، والاستثمار فيه بما يكفل للأمة مسايرة العصر، والمضيّ قدما، ويمنحها القدرة على السير في ركب الأمم، ولذلك ورغم كل المشاكل التي كانت الجزائر تتخبط فيها ألفينا الإبراهيمي وقد سخّر جزء من وقته وخصصه للاهتمام بما ينتجه المفكرون الجزائريون والعرب، وما تتمخض عليه عقولهم، فكان يتحدث عن الإنتاج الأدبي والفقهي (الديني)، والعلمي، وغيرها من العلوم الأخرى، فتحدث عن محمد العيد آل خليفة، وعن أمير الشعراء أحمد شوقي، وتحدث عن الطلبة الجزائريين في الزيتونة ووجه رسائل إلى مجمع اللغة العربية في مصر، وحضّ على التعلم في كل المجالات، وكرّس الوقت والمال لخدمة قضية العلم والفكر:« الأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات والاتجاهات العامة والمشخصات الخاصة، هي "الأمتعة" التي يرثها جيل عن جيل؛ ومنها يتكون مزاجه صحة واعتلالا.»[33] لقد تمحورت العديد من محاضرات الإبراهيمي حول كيفية تطوير فكر الإنسان بواسطة العلم الذي يفتح آفاقا لا يمكن فتحها بغيره، ودعا إلى ضرورة اكتساب العلم وتعليمه، وعدم ادخار أي جهد في سبيله، موضحا الغاية من كل ذلك:« غاية التعليم هي تفقيهه في دينه ولغته، وتعريفه بنفسه بمعرفة تاريخه، تلك الأصول التي جهلها آباؤه فشقوا بجهلها، وأصبحوا غرباء في العالم، مقطوعين عنه، لم يعرفوا أنفسهم فلم يعرفهم أحد.»[34] إن إهمال باب العلم، وتهميشه، وعدم الأخذ بأسباب تحصيله، ومنحه الأولوية التي تليق بمقامه، يؤدي إلى تأخر الأفراد وبالتالي تأخر الأمة، فهاته الأخيرة لا تكون فاعلة بين الأمم، ولها صدى مسموع إلا إذا كان أفرادها متسلحين بالعلم متمكنين منه على اختلاف مجالاته، واتساع مساحاته، إذ ليس في العلم مجال أقل شأنا من الآخر.

إن مستوى التقدم العلمي، ومستوى التقدم الثقافي، كلاهما رهان لابد من اكتسابه حتى لا تتوقف قافلة الأمة عن المسير والتقدم، إذ إن:« الثقافة هي المحرك الأساسي للفعل الإنساني، فمقياس تحضر الأمم ورقيها مرتبط بتقدمها الثقافي.»[35] كل ما قاله الإبراهيمي عن العلم والثقافة وكل ما يتجلى فيه فكر الإنسان كان إيمانا منه بأن الإنسان بلا علم ولا فكر لا هوية له .

حتى وإن كانت الهويات الثقافية لمختلف الأمم تشترك في ذات المقومات إلا أن البشير الإبراهيمي قد تحدث عن المقومات الأساسية للهوية الثقافية الجزائرية بنوع من التخصيص:« هي مجموعة من المقومات والخصائص التي تنفرد بها الشخصية العربية، وتجعلها متميزة عن غيرها من الهويات الثقافية الأخرى، وتتمثل هذه المقومات في: اللغة والدين والتاريخ والجغرافيا والعادات والتقاليد والأعراف.»[36] وقد أعانه على ذلك كونه ابن البيئة الثقافية الجزائرية؛ فهو قد عاش في أحضان وطنه ؛ إذ لم يعش مغتربا ولا منفيا، فكان يتحدث بمنطق العارف لخبايا أمته، السابر لأغوار عقليتها، والفاهم لطريقة تفكيرها، ،كما شفع له اطلاعه الواسع على ماضيها من خلال أمهات الكتب ، وهو الذي أوتي حافظة قوية بشهادة كل من يعرفه .

5-النتائج:

1- حقيقة لم يحضر مصطلح الهوية ولا الهوية الثقافية في متون الإبراهيمي، لكن الاسم وإن غاب لم يمنع من الحضور الطاغي للمسمى فمعطى الهوية والهوية الثقافية هيمنا هيمنة واضحة على ما خطته يد الإبراهيمي .

2- الهوية الثقافية كمفهوم وكدراسة تطبيقية موجودة في مؤلفات الإبراهيمي، فقد صاغ مفهومها، وأوضح ماهيتها، وأكد على ضرورة الوعي بها والتمسك بتلابيبها كي لا تضيع الأمة الجزائرية في ظل التكالب المستمر للمستعمر .

3- توضيح الأسباب الداعية للتطرق لموضوع الهوية الثقافية كان من بين اهتمامات الإبراهيمي؛ فراح ينظر ويحاضر من أجل إسماع كلمته لكل فرد من أفراد الأمة الجزائرية؛ لأن معرفة الأسباب كفيلة بجعل المتلقي يعي الدور المنوط به، فيتلقف عن فهم ويحمل الرسالة عن قناعة .

4- التركيز على ضرورة التمسك بكل مقوم من مقومات الهوية الثقافية التي لا يمكن لهاته الأخيرة أن تقوم بدونها، كان بمثابة شعار لنضال الإبراهيمي، لا سيما ما تعلق بالدين واللغة، إيمان منه بأن الهوية الثقافية لن تقوم لها قائمة إذا اعترى أي مقوم من مقوماتها الضعف.

5- الهوية الثقافية شكلت مفصلا رئيسا في خطاب الإبراهيمي وعيا منه بأن الأمة لها أطر مادية وجغرافية وروحية، والهوية الثقافية هي روح الأمة، وبدونها ستتعرض للانهيار والزوال .

6- سياسة المستعمر القاضية بتدمير الهوية الجزائرية احتاجت إلى رد فعل يكون بنفس القوة ونفس المستوى وهو ما تمثل في نشاطات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسهم الإبراهيمي الذي لم يتوقف عن النضال حتى سمع تهاليل الاستقلال.

7- عدم الاهتمام بالتنظير، والتركيز على البحث الميداني والتطبيق والممارسة، حيث ركز الإبراهيمي فيما يخص موضوع الهوية والهوية الثقافية على المضمون بدل الشكل، وبحث في الماهية قبل الاسم، وغاص في المقومات قبل وضع الأطر الخارجية،

كان حتمية فرضتها الظروف المحيطة بالإبراهيمي، حيث الشعب تحت وطأة الإستعمار ومحاولاته الحثيثة للقضاء على هويته، فكان ترتيب الأولويات يمنع من الخوض في النظرية ويدفع مباشرة إلى الإمساك باللب والنواة، فلو كانت ظروف الإبراهيمي غير المذكورة آنفا لربما اختلف الوضع ولربما كان البحث في موضوع الهوية يرتدي ثوبا آخر ، ولربما أعطى الوقت الكافي لبحث المصطلح الأنسب للموضوع، وكذا توضيح المرجعية المتكأ عليها ثم الغوص في الماهية والمقومات الأساسية .

8- إذا كانت الهوية الثقافية كمصطلح ومفهوم قد ظهرت في الستينات من القرن الماضي، فإن الإبراهيمي قد تحدث عنها ودرس ماهيتها ومقوماتها وسبل الحفاظ عليها وما تشكله من أهمية قبل أن تدخل الكلمة المحافل الأوروبية، فمقالات الإبراهيمي ومحاضراته حملت المعطى والموضوع منذ الثلاثينات، ولذلك يمكن القول أن الإبراهيمي قد حاز قصب السبق في تناول الموضوع والتطرق إليه والإشارة إلى أهميته بالنسبة للأمم.

الخلاصة:

إن الظروف التي كتب فيها الإبراهيمي كان يصعب تناول أي موضوع فيها مهما كان بسيطا وهينا، ورغم ذلك، ورغم قساوة الواقع، وهيمنة المستدمر الفرنسي، إلا أن الإبراهيمي لم يتوقف عن النضال بسلاح القلم، وهو السلاح الذي كان حمله في تلك الفترة أصعب من حمل السيف والرشاش، ولم يتوان عن طرق أصعب الموضوعات، وموضوع الهوية الثقافية في الفترة إياها يعد نقطة فارقة تحتاج إلى جرأة شديدة، وشجاعة عظيمة، واطلاع واسع، وإيمان غائر، وهي كلها صفات توافرت في شخص الإبراهيمي الذي شهدت مؤلفاته بالعبء الثقيل الذي ظل يحمله إلى أن وافته المنية .

إن الأمة الجزائرية لمدينة للإبراهيمي الذي رسخ في ذاكرة أبنائها مبادئ الحفاظ على هويتهم الثقافية والتمسك بها، وناضل من أجل ألا تضيع الشخصية الجزائرية أمام شخصية الغريب الوافد الذي لم يدخر جهدا في محاولة طمسها وتدميرها .

إن القول بأهمية الهوية الثقافية بالنسبة للأمم ليس حكرا على زمن الاستعمار، بل هو كذلك حتى في زمن العولمة، وفي زمن الغزو الفكري والروحي، حيث لم يعد الحديث عن هذا الموضوع من قبيل الترف الفكري، بل إنها ممارسات أثبتت فعلا حضورها، من خلال ما بتنا نشاهده من طغيان ثقافة على حساب أخرى، ومن زوال ثقافة مقابل اكتساح أخرى، لدرجة قد نرى فيها شعبا عربيا بثقافة غربية، وشبابا عربيا بممارسات ثقافية غريبة عن أصله، هذا الهجين من الثقافات، وغياب التخوم الواضحة بين ثقافات الأمم، لا سيما الضعيفة، وغلبة نمط ثقافي واحد ووحيد على بقية ثقافات العالم هو ما يجب أن نخشاه، ونعد له العدة اللازمة للتصدي له، ولا يتحقق ذلك إلا بنضال مماثل لنضال الإبراهيمي.

ربما لم تستطع هذه المقالة أن تجيب عن كل الأسئلة المطروحة، كما أنها لم تستطع أن تحسم الأمر في بعض الجوانب؛ ومرد ذلك إلى : قلة الدراسات حول آثار "البشير الإبراهيمي" هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن البحث العلمي هو بمثابة سلسلة من الحلقات التي يكمل بعضها البعض، ومثل هذه الدراسات تحتاج إلى تكاتف جهود العديد من الدارسين والباحثين لمحاولة الإحاطة بالموضوع من كل جوانبه، ولكنها حاولت تقصي المسألة المطروحة للبحث قدر المستطاع .

الهوامش:

[1] أحمد مولاي : ملامح الهوية في السينما الجزائرية، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، وهران، الجزائر، 2012م، 2013م ، ص 33 .

[2] المرجع نفسه، ص 34 .

[3] شريفة بريجة : التغيرات السوسيو-ثقافية وأثرها على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري دراسة سوسيو ثقافية لبعض مؤشرات التغير نموذجا عبر بعض المدن الجزائرية، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران 2، وهران، الجزائر، 2015م، 2016م، ص 38 .

[4] محمد سعدي : الهوية ..من الوحدة إلى التعدد، مجلة آفاق المستقبل، العدد 7، سبتمبر، أكتوبر، 2010م، ص 81 .

[5] أليكس ميكشيللي : الهوية ، تر : علي وطفة ، دار الوسيم للخدمات الطباعية (دمشق)، ط 1، 1993م، ص 7 .

[6] عبد العزيز بن عثمان التويجري : الهوية والعولمة من منظور التنوع الثقافي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة –إيسيسكو-،(المغرب)، ط 2، 2015م، ص 19 .

[7] فاطمة الزهراء مقدم : دور الإذاعة المحلية في ترسيخ الهوية الثقافية طلبة جامعة البيض أنموذجا، مذكرة ماستر، جامعة مولاي الطاهر، سعيدة، الجزائر ، 2014م، 2015م، ص 55 .

[8] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي(بيروت)، ج 1 (1929-1940)، ط 1، 1997م، ص 141.

[9] عبد العزيز صالح المقالح : اللغة العربية: الهوية والانتماء، مجلة مجمع اللغة العربية، (القاهرة)، العدد 116، ماي 2009م، ص 108.

[10] شريفة بريجة : التغيرات السوسيو-ثقافية وأثرها على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري دراسة سوسيو ثقافية لبعض مؤشرات التغير نموذجا عبر بعض المدن الجزائرية، ص 22 .

[11] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3 (عيون البصائر)، ص 46.

[12] أيسم سعد محمدي محمود : تعزيز الهوية الثقافية العربية في مدارس التعليم الأجنبي "دراسة ميدانية"، مجلة العلوم التربوية، (الرياض)، العدد 4، ج 1، أكتوبر 2017م، ص 57.

[13] شريفة بريجة : التغيرات السوسيو-ثقافية وأثرها على الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري دراسة سوسيو ثقافية لبعض مؤشرات التغير نموذجا عبر بعض المدن الجزائرية، ص 47.

[14] المرجع نفسه، ص 35 .

[15] أيسم سعد محمدي محمود : تعزيز الهوية الثقافية العربية في مدارس التعليم الأجنبي "دراسة ميدانية"، ص 57.

[16] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3 (عيون البصائر) ، ص 64.

[17] المصدر نفسه، ج 1(1929-1940)، ص 107 .

[18] المصدر نفسه، ص 108 .

[19] المصدر نفسه، ص 107 .

[20] محمد مهداوي : الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وجهوده في خدمة اللغة العربية، ونهضة سورية الحديثة، المؤتمر الدولي الخامس للغة العربية، (دبي)، 4-7 ماي 2016م، ص 164.

[21] سيد حامد حريز : الهوية والوحدة الوطنية في السودان جدلية الثقافة والسياسة، الدار العالمية للنشر والتوزيع، (القاهرة)، ط 1، 2017م، ص 15 .

[22] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3 (عيون البصائر)، ص 281.

[23] محمد الهواري : العولمة الثقافية وأثرها على الهوية العربية الإسلامية، مجلة الحكمة للدراسات الاجتماعية، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، (الجزائر)، العدد 18، 2013م، ص 163.

[24] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3 (عيون البصائر)، ص 284.

[25] المصدر نفسه، ص 284.

[26] حياة عمارة : و مريم جلائي : الإبراهيمي ورؤيته الاستشرافية لإحياء اللغة العربية في الجزائر، مجلة دراسات الأدب المعاصر، ،(جامعة آزاد الإسلامية، (جيرفت)، العدد 21، السنة السادسة، ربيع 1393هـ، ص 72 .

[27] عبد الله البريدي : اللغة هوية ناطقة، منظور جديد يمزج اللغة بالهوية والحياة، سلسلة كتاب المجلة العربية 197، (الرياض)، د ط ، 1434هـ، ص 30 .

[28] عز الدين صحراوي : اللغة العربية في الجزائر : التاريخ والهوية، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد 5، جوان 2009م، ص 80.

[29] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3 (عيون البصائر)، ص 63.

[30] المصدر نفسه، ص ص 428، 429 .

[31] أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1 (1929-1940)، ص 109.

[32] المصدر نفسه، ج 3 (عيون البصائر)، ص 428.

[33] المصدر نفسه، ص 273.

[34] المصدر نفسه، ص 275.

[35] أشرف ، داليا، التفاعلية والهوية الثقافية لدى الشباب المصري-رؤية تحليلية- مجلة Arab Media and Society، مركز كمال أدهم للصحافة التلفزيونية والرقمية بكلية الشؤون الدولية والسياسات العامة بالجامعة الأمريكية، (القاهرة)، العدد 23، شتاء-ربيع 2017م، ص 9.

[36] أيسم سعد محمدي محمود : تعزيز الهوية الثقافية العربية في مدارس التعليم الأجنبي "دراسة ميدانية" ، ص 54.